

تجربة التعريب في سورية

الدكتور توفيق المنجد

مدة قصيرة وكانما تم بعضى سحرية . وفي هذه الفترة بالذات احدثت في دمشق جامعة مؤلفة من كئيتين : احادما للطب والصيلة وطب الاسنان والاخرى للحقوق لمجابهة حاجة البلاد للاطباء والصيدلة والقضاة والمحامين . وتضافرت جهود اساتذة هاتين الكئيتين مع جهود اعضاء المجمع العلمي العربي في وضع المصطلحات الطبية والحقوقية بحيث سار التعليم الجامعي منذ السنة الاولى من تاسيسه باللغة العربية . واستمرت الترجمة والتأليف ووضع المصطلحات حتى نهاية المرحلة . وقد بلغ عدد الكتب التي ألفها اساتذة الجامعة واخرجتها مطبعتها مائة وخمسين مصنفا في مختلف العلوم الطبية والحقوقية عدا المجلات الطبية والحقوقية التي أصدرتها الجامعة .

وحاول الفرنسيون بعد احتلالهم لسوريا ان يحلوا لغتهم محل اللغة العربية في التعليم والتدريس وان يلغوا التعليم الجامعي برمته ، ولكن محاولتهم لاقت مقاومة عنيفة وفشلت فشلا ذريعا فاكتفوا باحتلال لغتهم مكان اللغة الانجليزية التي كانت تدرس كلغة في المدارس وباقامة العقبان في نمو الجامعة وتطويرها .

وما لبث ان جلا انفرنسيون عن البلاد بفضل كفاح اهلها المرير وبدأ عهد الاستقلال باصلاح شامل لمناجج التعليم فأعيدت اللغة الانجليزية الى جانب اللغة الفرنسية في التعليم الثانوي ، وحدثت في جامعة دمشق دفعة واحدة أربع كئيات جديدة انضمت الى كئيتي الطب والحقوق وهي كئيات الآداب والعلوم والتربية والهندسة ، ثم اضيفت اليها كئيتان أخريان هما التجارة والشريعة . وبهذا نشطت الحركة العلمية في البلاد وتآلفت فيها جمعيات علمية متعددة انتظمت كلها في اتحاد عام وازداد عدد انكتب المؤلفات او المترجمة في شتى ميادين العلوم والفنون .

هذه صورة سريعة لتجربة تعريب التعليم التي مرت بها سوريا خلال الأربعين سنة الفائتة عمل فيها جيل بعد آخر لم يستهول الجيل الاول منها صعوبتها بل أقدم يعزم على اقتحامها ومهدت الاجيال الاخرى الطريق امامنا لتسير فيه دوما بخطوات واسعة .

رزحت الديار الشامية تحت نير الحكم التركي حقبة طويلة من الدهر امتدت نحو خمسمائة سنة ونيف ، عانى أهل البلاد خلالها اشد أنواع الظلم والاستغلال والاستعباد ، واشتدت وطأة هذا الحكم في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حينما عمد العثمانيون الى محاولة « تترك » الشعب العربي في سوريا بعد ان صبغوا الادارة المحلية بطابعهم وملأوا دواوينها بموظفيهم ولبصوا الى غايتهم هذه انشاوا في المدن الكبيرة بعض المدارس الرشدية « الابتدائية » والاعدادية والسلطانية « الثانوية » . وجعلوا التعليم كله فيها باللغة التركية ولم يتركوا للغة العربية ودروس الدين الا النزر القليل من الساعات ، يدرسها معلمون اترك باللغة التركية . ولم تفلت المدارس الاهلية العربية من ايديهم فعمدوا الى فرض تعليم اللغة التركية فيها بنطاق واسع ، ولاحقوا بالتفتيش المستمر وعقوبة الاغلاق للتخلص منها نهائيا ولكن مقومات القومية العربية بقيت رغم ذلك وطيدة الاركان ، ومنها انبعثت روح المقاومة والكفاح والنضال .

وعند ما انهزم الاتراك في نهاية الحرب العالمية الاولى ، وولى موظفهم الادبار واجهت البلاد بين المشاكل المتعددة مشكلة اعادة تعريب الادارة والتعليم . فانشى المجمع العلمي العربي بدمشق من لفيف من كبار اللغويين والادباء والعلماء ، وكان من اولى مهماته احياء التراث العربي القديم ووضع المصطلحات الادارية والعلمية والفنية . وقام المجمع بمهمة هذه خير قيام فعمل على ايجاد المصطلحات الادارية والفكرية التي مكنت الحكومة من تعريب جيشها الفتى ودواوين مصالحها بسرعة كبيرة ، ثم انصرف المجمع لايجاد المصطلحات العلمية والفنية التي تتناول مرافق الحياة المختلفة .

وبجانب هذه الجهود الرسمية ، قامت جهود فردية من قبل فريق من المعلمين والمدرسين للترجمة والتأليف ووضع المصطلحات المناسبة لكل مادة من مواد العلوم التي تدرس في مرحلتى التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي . فتم بذلك تعريب التعليم دفعة واحدة وخلال